

الأدب العربي بين الصدق الفني والأخلاقي في صدر الإسلام

للدكتور شوقي عبد الحليم حمادة
عرض د. عمر عبدالرحمن الساريسي

يمكن قسمة هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام:
١ - توضيح ماهية الصدق الفني
٢ - عرض موقف الأدب في عصر
الرسول عليه السلام، وعصر الراشدين
من الناحية الفنية والأخلاقية
٣ - مناقشة بعض الأفكار المتعلقة بهذا
الموضوع

١ - معنى الصدق الفني:

يعرض المؤلف لمعنى الصدق الفني كما
ورد على ألسنة النقاد والمحدثين. فالأمدي
يقول: «الشاعر لا يطالب بأن يكون قوله
صادقاً» ص ٣١.

وابن رشيق يقول: «إن من فضائل
الشعر أن الكذب الذي اجتمع الناس على
قبحه حسن فيه» ص ٣١.

ويناقش عبدالقاهر الجرجاني القولين
المشهورين: خير الشعر أكذبه وأعذب
الشعر أصدق، ويفضل الثاني، ويتوسط
بين الأمدي وابن رشيق ويؤثر «الصدق
الأخلاقي غير محدد الأهداف» ص ٣٢.

ويلخص المؤلف آراء النقاد القدامى
فيقول: «الصدق الفني هو أصالة الكاتب
والشاعر في تعبيره ورجوعه فيه إلى ذات
نفسه، لا إلى العبارات التقليدية المحفوظة»
(ص ١٩).

أما النقاد المحدثون فهم يجمعون على

الصدق الفني فحسب، ومن هؤلاء محمد
النويه وسيد قطب ومحمود تيمور
وتوفيق الحكيم.. وغيرهم.

٢ - في أدب عصر صدر الإسلام:

يربط المؤلف بين الصدق الفني في
الإبداع وبين الإسلام باعتباره عقيدة
ربانية لم تحجر النشاطات الفنية. «فعلاقة
الفن بالدين قديمة، في أماكن العبادة لدى
الأغريق وغيرهم من الأمم القديمة» (ص
٦٢). «لأن الأدب لم ينفصل عن العقيدة
منذ وجد الإنسان، وكل منهما وسيلة
نظيفة لغاية نبيلة، ومنبتهما متحد وهو
الفطرة البشرية» (ص ٤٩ - ٥٠).

وآية ذلك أن من مميزات الأدب في عصر
صدر الإسلام اهتمامه بالأمور الجادة
والحكمة والإرشاد وهجره للمعاني
الساقطة والأغراض السيئة كالهجاء
البيدي والغزل الفاحش، ثم بروز المعاني
الإسلامية بديلاً عنها.

وهذا التحول في الفكر إلى الغائية
الإسلامية بدا في الشعر والنثر والخطب
موجهاً لمنفعة الناس جميعاً في أنحاء
المجتمع الإسلامي المترامية، وهذا نابع من
موقف الإسلام من الإبداع بأنواعه
المختلفة.

«قالقرآن لم يحظر الشعر ولم يقف
دونه، ولكنه نزه نفسه عن أن يكون
شعراً، ورفع رسوله عن أن يكون شاعراً،
وفرق بين شعر وشعر وشعراء وشعراء»
ص ٧٥.

وهذا رسول الله ﷺ يقول للأَنْصار: ما
يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله



بسلحهم أن ينصروه بالسنتهم؟ فيقول
حسان أنا لها، وذكر فضله على الشعراء
(ص ٧٩).

ولقد كان الشعر في عصر الرسول عليه
السلام، يصور ما يحدث بين المسلمين
وأعدائهم في ميدان القتال، ويدافع عن
مبادئ الإسلام وتعاليمه، ويرثي القتلى
من المجاهدين الأبطال ويهجو المشركين
(ص ١١٨).

وكانت الخطب في عصر الراشدين،
كذلك، تحقق الصدق الفني والأخلاقي
بصورة دقيقة وفعالة (ص ١٢٣)

وسار الشعر في عصر الراشدين
كسيرته في عصر الرسول ملتزماً
بالصدق الأخلاقي مبتعداً عما نهى الله
تعالى عنه بعاطفة صادقة معبراً عما
يحدث في المجتمع دون غلو (ص ٨٣٨).
وبذلك يكون قد جمع بين الصدق الفني
والصدق الأخلاقي.

٣ - أفكار ذات علاقة بالموضوع:

وقد يلفت انتباه القارئ بعض الأفكار
الجانبية في الكتاب:

أولها: أنه على الرغم من اعتباره قوله
القاضي الجرجاني حول الدين والشعر
مثلاً على الصدق الفني فإنه يعتبرها في
النهاية مجافية لروح الأدب الإسلامي في
تأثير العقيدة في الشعر (ص ٧٦).

وأخراها: أنه يقارن بين الواقعية في
المذاهب الأدبية الغربية الحديثة والواقعية
في فهم الأدب الإسلامي، ويرى أن
الواقعية الإسلامية تجمع بين الصدق
الفني والأخلاقي أما الأولى فإنها تفصل
بينهما (ص ١٥٠).

والأخيرة: تتصل بأن النقد للأدب
الإسلامي يقلل المبالغة في الشعر ولا
يرفضها مالم تزيف الحقائق ولم تصور
غير الواقع ولم توهم الباطل، وهي بذلك
تخدم الصدق الفني (ص ١٦١).

مصرع الذئب

من نراث الشعر



الذئب في نيافة الشاعر

للفردق

كانت الغمام تركض على وجه القمر الملتهب
مثلاً يعبر الدخان هارباً أمام الحرائق

وكانت الغابات سوداء، حتى الأفق،

وكنا نسير بصمت، على العشب الرطب

في منابت الوزال الكثيف والصنوبر الشامخ

الشبيهة بأشجار منطقة «لاند»

فشاهدنا المخالب الطويلة التي طبعت آثارها على الثرى
ذئاب جواله مطاردة.

وأصغينا وقد حبسنا الأنفاس ووقفنا الخطي

لم تكن الغابة أو السهل ليرسلا زفرة في النسيم

كانت «دوارة الريح» وحدها تطلق إلى السماء تفجعها
المستديم

ذلك لأن الريح كانت قد هبت مرتفعة فوق الثرى

ولم تعد تلامس بأقدامها إلا الأبراج المتوحدة،

وكان السنديان في الأسفل حائيا على الصخور

متكئاً على مرافقه كما لو يغفو وينام.

لم يكن ثمة نائمة عندما أحنى أكبر الصيادين سنا رأسه
مصنئاً

ونظر إلى الرمل ثم أخذ يتفحصه مضطجعا،

ومالبث، بصوت خفيض، أن أعلن:

- وهو الذي لم يخطئ قط في هذا المجال -

إن هذه الآثار الطرية تشير إلى مخالب جبارة

لذئبين كبيرين وآخرين صغيرين مرت من هنا

عند ذاك هيأنا جميعاً مداناً وأخفينا بناقنا وضيءها
المثالي

وتقدمنا خطوة خطوة ونحن نزيح الأغصان.

وتوقف ثلاثة منا، وأخذت أنا أبحث عما شاهده

ولمحت فجأة عينين تلتهبان، ورأيت عبرهما أربعة أحجام
غائمة

تتراقص في ضوء القمر بين الأدغال، مثلاً تفعل، كل يوم،

كلاب الصيد المرحّة،

عندما يعود سيدها، وسط الضجيج...

وعلى مرأى منا بدت أشكالها متشابهة.. ومتشابهة

[جاء في الديوان عن الحرمازي أنه قال: كان الفردق قد خرج في نفر من الكوفة فلما عرسوا من آخر الليل عند الغريين* وعلى بعير لهم مسلوخة كان اجتزر شاة ثم اعجله المسير فسار بها فجاء الذئب فحركها وهي مربوطة على بعير، فذعرت الإبل وجعلت الركاب منه وثار الفردق، فأبصر الذئب ينهشها، فقطع رجل الشاة فرمى بها إلى الذئب، فأخذها وتحتى ثم عاد فقطع اليد فرمى بها إليه، فلما أصبح القوم خبرهم الفردق بما كان وقال:]

وَأَطْلَسَ عَسَالٌ وَمَا كَانَ صَاحِبًا

دَعَا بِنَارِي مَوْهِنًا قَاتَانِي^١

فَلَمَّا أَتَى قُلْتُ أَدُنْ دُونَكَ إِنَّنِي

وَأَيَّاكَ فِي زَادِي لَمْ شَرَّكَ كَانِ

قَبْتُ أَسْوَى الزَادِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ

عَلَى ضَوْءِ نَارِ مَرَّةٍ وَدَخَانِ

وَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَكْشَرُ ضَاحِكًا

وَقَائِمٌ سَيْفِي فِي يَدِي بِمَكَانِ^٢

تَعَشَّرُ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونَنِي

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذَنْبُ يَصْطَحِبَانِ^٣

وَأَنْتَ امْرُؤٌ يَا ذَنْبُ وَالْغَدْرُ كُنْثَمًا

أَخْيَيْنِ كَانَا أَرْضَعَا بِلَبَانِ^٤

وَلَوْ غَيْرُكَ نَبَّهْتُ تَلْتَمَسُ الْقَرَى

رَمَاكَ بِسَهْمٍ أَوْ شَبَابَةِ سِنَانِ^٥

■ هوامش:

* الغريان: هما بناءان مشهوران بالكوفة ويقال هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسميا غريين لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله إذا خرج في يوم يؤسه.

١ - الأطلس: الذئب الأمعط في لونه غيرة إلى السواد، العسال: السريع، المضطرب في سيره، الموهن: نصف الليل.

٢ - تكشر: أبدى أسنانه ضاحكاً، قائم السيف: مقبضه.

٣ - أي إذا لم تظهر عليك علامة الغدر بقيت معي كالمصطحبين.

٤ - المراد ومع أنني أعرف أنك والغدر متلازمان لا تفترقان فشيئك الغدر دائماً.

٥ - القرى: الضيافة. شبابة السنان: حذو.



من الشعر العالمي

للشاعر الفرنسي: ألفريد دو فيني

الرقصات!

ولكن الذئبين الصغيرين كانا يلعبان بصمت.
أما أبوهما فقد كان يعلم أن عدوها الإنسان، على بعد
خطوتين،

يغمض عينيه نصف إغماضة، ويتربص بين الجدران
كان الذئب - الأب - منتصباً وبعيداً تحت شجرة.
كانت الذئبة تستريح كما لو صبت من مرمر كتلك الذئبة
التي كان يعبدها الرومانيون والتي ضمت في حضنها
الرغب

الإنسانين المؤلهين، ريموس ورومولوس.

جاء الذئب وأقعى، وقادماه منتصبتان..

وبرائته المعقوفة مغروزة في الرمل.

كان يعلم أنه هالك لا محالة ما دام قد فوجيء وقطعوا عليه
جميع المسالك..

عند ذاك، انقضّ على أشجع الكلاب..

وبشدقه اللاهب أطبق على عنق الكلب المختلج ولم يفتح
فكيه الحديديين،

رغم طلقاتنا النارية التي كانت تخترق جسده،

ورغم مدانا الحادة التي كانت تتقاطع مثل الكماشات،

وهي تنغرز في أحشائه الرحبة،

إلى أن لفظ الكلب المخنوق آخر أنفاسه،

وتدحرج عند قدمي الذئب، قبل موت هذا بكثير،

آنذاك تركه الذئب ثم أخذ يحدجنا بنظراته.

كانت المدى تغوص في جسده حتى المقابض، وكانت تسمره
إلى العشب مضرباً بدمائه،

وبنادقنا تحيط به على شكل هلال.. مشؤوم.

وكان ما يزال ينظر إلينا.. ثم تمدد على العشب، وهو يلحق
الدم المنتشر على فمه..

ودون أن يهتم بطريقة مصرعه، أغمض عينيه الكبيرتين
وأسلم الروح

دون أن تندّ عنه أية صيحة.

أسندت جبينني إلى بندقيتي الفارغة،

وأخذت أفكر، ولم أستطع إقناع نفسي بمطاردة الذئبة

وصغيريها.. وقد أرادت انتظاره،

وفي اعتقادي أن الأرملة الجميلة الكثيبة،

ما كانت - لولا صغيرها - تغادره وحيداً يجابه المحنة
الكبرى

ولكن واجبها كان في إنقاذ الصغيرين كي يتعلما مكافحة
الجوع

وعدم الدخول في ميثاق المدينة «أ»

الذي عقده الإنسان مع الحيوانات الذليلة التي تطارد

- مندفعة أمامه كي تحصل على مأوى المالكين الأوائل
للسحاب والصخور.

وفكرت.. وأسفاه! رغم هذا الاسم الكبير

الذي نحملة نحن البشر

كم أنا خجل من تصرفاتنا، وكم نحن ضعفاء!

فأنت التي تعرفين كيف يجب أن تغادر الحياة وآلامها
جميعاً

أيتها الحيوانات الرائعة.

فإذا ما فكر الإنسان أي شيء هو على الأرض وماذا ترك؟

تين أن الصمت وحده هو العظيم وأن كل ما عداه ضعف.

آه لقد فهمتك جيداً أيها الجوال المتأبد

ونظرتك الأخيرة نفذت إلى قلبي

كانت تقول: «إذا استطعت فاجتهد كي تصل روحك بفضل
الجد والتفكير إلى هذه الدرجة من الكبر الصامد،

حيث ارتفعت منذ الوهلة الأولى، أنا سليل الغابات،

الأنين والبكاء والضراعة جبن ومهانة

أدّ بحزم مهمتك الطويلة الشاقة حيث يدعوك المصير

ثم تحمل الآلام مثلي ومت دون شكوى.

■ هوامش:

١ - يلمح الشاعر هنا إلى وضع الهنود الحمر بالنسبة إلى المستعمرين
وكيف أنهم كانوا يفضلون حياة الغابة على ميثاق المدينة